ديستوبيا المجتمعات التكنولوجية المتقدمة:

حين تتحول الثورة البيوتكنولوجية الى ديستوبيا

The dystopia of advanced technological societies:

When the biotechnological revolution turns into a dystopia

أيمن بوطرفة

جامعة وهران2 محمد بن احمد (الجزائر)، aymenboutarfa@hotmail.com

تاريخ الاستلام: 2023/02/05 تاريخ القبول: 2023/07/05 تاريخ النشر: 2023/07/31

ملخص:

اشكالية هذه المداخلة تسلط الضوء على الآثار الجانبية لتطور التكنولوجيا والعلوم على حياة الإنسان، من خلال عرض روايات وأطروحات فلسفية تنبأت بمصير سوادي لتطورات البيوتكنولوجيا، فيما يسمى ب"ديستوبيا البيوتكنولوجيا". فيتم التطرق الى منعطفات ومسارات الثورات العلمية الكبرى وآثارها على الإنسان ومفاهيم "الطبيعة البشرية" و"الكرامة البشرية". ثم الانتقال لعرض سرديات الديستوبيا، من قبيل رواية "ألدوس هكسلي" "عالم جديد شجاع"، ورواية "جورج أورويل" "1984". ثم الانتقال لعرض آراء بعض الفلاسفة والنظريات الفلسفية وأبرزهم هربرت ماركيوز وفرنسيس فوكوياما حول مسألة عواقب البيوتكنولوجيا على مستقبل الإنسان.

كلمات مفتاحية: ديستوبيا، بيوتكنولوجيا، مجتمعات متقدمة، اغتراب، استشراف.

Abstract:

The problematic of this intervention sheds light on the side effects of the development of technology and science on human life, by presenting narratives and philosophical treatises that predicted a dark fate for the developments of biotechnology, "the dystopia of biotechnology". The major scientific revolutions and their effects on man and the concepts of "human nature" and "human dignity" are discussed. Then he presented dystopian narratives, such as the novel "Brave New World" and the novel "1984". He then presented the views of some philosophers such as Herbert Marcuse and Francis Fukuyama on the issue of the consequences of biotechnology on the human future.

Keywords: Dystopia; biotechnology; advanced societies; alienation; foresight.

1. مقدمة:

قدم تطور العلوم والتكنولوجيات وعودا بحياة أفضل للبشر، فالاكتشافات العلمية تقود الى انتاج تكنولوجيات مبتكرة تفضي الى ايجاد وسائل تسهل حياة البشر، ومن هنا تحول العلم ذاته الى سردية كبرى تهدف الانسانية للإنعتاق من خلالها. ذلك أن هدف العلم هو مساعدة الانسان في ايجاد حلول لأمور بدت من الحتميات الطبيعية، وغايته فهم القوانين الطبيعية للسيطرة على عوارض الطبيعة كما أشار الى ذلك "صاحب الأورغانون الجديد" "فرنسيس باكون". بهذا حملت الثورات العلمية المختلفة منذ الثورة الصناعية الى الثورة البيوتكنولوجية آمالا ومنعطفات وتطورات جذرية على مستوى الافكار وأنماط العيش والسياقات الاجتماعية والثقافية للانسان، فتحولت السردية العلمية نفسها الى "يوتوبيا " **"Utopie"**تبشر بعالم أفضل، يحصل فيه الانسان على رغد العيش وحياة الرفاهية المتوقعة، متمتعا بامتيازات مثل أعمار أطول، صحة أحسن، مستوى عيش أفضل، اضافة الى واقع اجتماعي واقتصادي تتجسد فيه قيم الحرية والمساواة ومختلف ما يراه الانسان خيرا.

فكان القرن العشرين هو عصر تحول الثورة العلمية الى واقع، فقادت الاكتشافات المتسارعة والتي لم تشهدها آلاف السنين من التاريخ الوجود الانساني الى تغيرات جوهرية في حياة البشر. لكن الواقع أيضا أثبت أن وعد الخلاص الفردوسي الذي وعدت به سرديات الثورات العلمية المتفائلة بعيد عن التجسد، فقد انكشفت جوانب سلبية خطيرة للتقدم العلمي، فظهر أن مكتسبات التكنولوجيا والبيوتكنولوجيا ما هي إلا شجرة مثمرة تغطي غابة من الأشجار المحترقة. فكان هذا بالذات هو مبعث بلورة عديد السرديات الفكرية والفلسفية في القرن العشرين، والتي يمكن ادراجها في سياق "ديستوبيا المجتمعات التكنولوجية

المتقدمة"، و"الديستوبيا" تعني "المدينة الفاسدة"، عكسا عن "اليوتوبيا" أي المدينة الفاضلة. فكانت رواية "ألدوس هكسلي" الفلسفية "عالم جديد شجاع" تجسيدا لتصور مجتمع مستقبلي تصيغ التطورات العلمية معالمه بكلية، فيتحول العلم والتكنولوجيا فيه الى كل شيء. لكن بدل أن يحمل هذا الخلاص والفردوس الأرضي للبشر، فإنه يحول حياتهم الى جحيم بشكل آخر، يتحول معه التقدم العلمي نفسه الى مطية لاستبداد جديد. على نفس الخطى يسير "جورج أورويل" في روايته الفلسفية "1984"، التي تسلط الضوء على علاقة الاستبداد السياسي بالتكنولوجيا العلمية، حيث تسمح تطورات التكنولوجيا للأنظمة السياسية الشمولية بزيادة قدراتها على فرض أنظمة مراقبة شاملة على حياة البشر، لتحولها الى جحيم تنعدم فيه كل أشكال الحرية والحميمية.

اشكالية هذه المداخلة تحاول كشف الآثار الجانبية لتطور التكنولوجيا والعلوم على حياة الانسان، من خلال عرض سرديات فكرية مختارة تطرقت لسؤال مآلات مكتسبات التقدم العلمي والثورة البيوتكنولوجية على الانسان سواء تعلق الامر بروايات فلسفية أو أطروحات فلسفية، في سياق ما يمكن تسميته ب: "ديستوبيا البيوتكنولوجيا". وذلك من خلال طرح سؤال استشرافي مهم: ما الثمن الذي يدفعه الانسان مقابل الاستفادة من مكتسبات التقدم العلمي والثورة البيوتكنولوجية؟.

2. البيوتكنولوجيا ، الكرامة والطبيعة البشرية

من المفاهيم الأكثر اثارة للجدل في النقاشات الفلسفية هي مفاهيم الطبيعة البشرية والكرامة البشرية، فإذا كان لكل فيلسوف وكل فلسفة تصوره الخاص عن طبيعة الإنسان ومحدداتها، فإن مفهوم "الكرامة البشرية" يمثل أحد أكثر المفاهيم قدسية المرتبطة بالإنسان ذاته، وقداسة هذا المفهوم تتجاوز الأبعاد الدينية لطبيعة الانسان وقيمه ذاتها،

لتقود الى استدلالات تتعلق بالإنسان ذاته ولذاته. ومفهوم الكرامة البشرية هو ذاته المفهوم الذي يعطي للإنسان مكانة خاصة في العالم، مكانة تجعله هو مركز الموجودات والتاريخ.

وقد تعرض مفهوم الكرامة الانسانية هذا مع تطور الأفكار في التاريخ الى ثلاث هزّات أو صدمات عنيفة، ارتبطت ثلاثتها بنظريات علمية وفكرية جسّدت ما يمكن تسميته بالثورات العلمية الكبرى. الأولى تمثّلت في "الثورة الكوبرنيكية"، والثانية كانت "نظرية التطور"، أما الثالثة وهي جوهر موضوع هذه المداخلة فهي "الثورة البيوتكنولوجية". فماهي أهم معالمها ؟

مع كوبرنيكوس سيفقد العالم الذي يعيش في مركزه الانسان مكانته المركزية في الكون، وهو ما يمثل نقدا صريحا بصيغة غير مباشرة لمكانة الانسان المتعالية على سائر الموجودات باعتباره مركز الكون الفاعل. وتأتي هذه النظرية أيضا كنقد للبراديغم الديني الذي كان يحكم مخيال الانسانية طيلة قرون طويلة من العصور الكلاسيكية الى القرون الوسطى. باعتبار الانسان يمتلك تكريما إلهيا خاصة يجعل منه يعيش في مركز الكون. بهذا فقد "أنزلت نظرية كوبرنيك الإنسان والأرض التي يعيش عليها من مكانتهما المقدسة، بوصف الأرض مركز العالم القديم ومن إبداع الخالق، إلى مجرد جرم سماوي يدور حول الشمس، حاله حال الكواكب الأخرى" (دية، 2009، صفحة 96).

مع ذلك فقد فتحت الثورة الكوبرنيكية الباب لظهور أفكار أخرى جديدة تحاول صياغة مفهوم جديد عن الكرامة البشرية: "فالتحول الكوبرنيكي أدى إلى فقدان المركزية المادية، لكن الوجود الإنساني لا يزال ثمينًا في سياقين؛ فنحن النوع الذكي الوحيد في ضاحيتنا الكونية. وعلى هذا النحو فإننا لا نعتمد على أي مركزية مادية. ومن خلال قوة التفكير النظري تستطيع العقول البشرية أن تجوب الكون. ونحن نعرف من التفكير أكثر مما نعرفه من الرؤية. وهذا نوع أثمن من المركزية؛ إنها المركزية العقلانية" (فاينرت، 2019، صفحة 125). فظهرت الفلسفة الحديثة مع ديكارت وغيره من الفلاسفة التي عملت اعادة مفهوم الكرامة الانسان من خلال ابراز قيمة العقل والوعي الانساني.

أما الثورة الثانية، وهي الأخطر والأكثر اثارة للجدل والنقاشات ، فقد كانت النظرية التطورية لتشارلز داروين، والتي كان لها عظيم الأثر على مفهوم "الكرامة البشرية". فهي القائلة بأن الإنسان ليس ذلك الجوهر الفريد ولا الكائن العقلاني الخارق، ولا المخلوق المكرم من الخالق، لأنه في النهاية جزء من الطبيعة، حيث يمثل تطورا طبيعيا لأحد الاجناس الحيوانية، وذكاءه ووعيه هذا هو نتيجة عملية تطور طبيعي. وهذه الأفكار مثلّت صدمة كبرى زعزعت كل مسلمات مفهوم "الكرامة البشرية" كما تصورها سابقا، سواء من أصحاب النموذج الناسوتي أو اللاهوتي، أصحاب التفسيرات الدينية أو المبرهنات العقلية.

وضع كوبرنيكوس "نظرية مركزية الشمس التي أدت إلى فقدان البشر للمركزية المادية، وقد سبب هذا تغيرًا خطيرًا في المنظور البشري حتى إنه ليس من المستغرب أن يُقارن بين داروين وكوبرنيكوس كثيرًا، فلقد سبَّبَ داروين هو الآخر تغييرًا في المنظور، حيث أزال فكرة التصميم، ووضع جميع أشكال الحياة العضوية، بما في ذلك البشر، تحت وطأة التفكير التطوري" (فاينرت، 2019، صفحة 137). بمعنى آخر أن النظرية التطورية وزيادة عن نقد مركزية الانسان المادية فإنها تنتقد أيضا مركزيته العقلانية. فالإنسان أصبح ما هو عليه نتيجة ظروف طبيعية و"صدفة" حدث في ظروف معينة، وهو ما قاد لأن يصبح نوعا متفوقا في الوعي والتفكير. حيث يمكن القول على سبيل المثال أن الإنسان والقرد قد تطورا من أصل واحد مشترك، لكنهما أخذا مسارين مختلفين لنتيجتين مختلفتين.

هذا ما يقود الى القول أنه "تقتلع ما بعد المركزية البشرية مفهوم التسلسل الهرمي للأنواع والأخذ بمعيار الانسان كمقياس لجميع الأشياء. فتظهر أنواع أخرى من غير إنسان واحد موحد للبشر في الفجوة الأنطولوجية التي تُخلق من جراء ذلك" (بريدوتي، 2021، صفحة 81).

أما الثورة الثالثة والاهم في هذا السياق فهي الثورة البيوتكنولوجية، التي وعلى عكس سابقاتها لم تثر جدلا سلبيا أول ما ظهرت بل على العكس. فقد حملت آمال الانسانية في

مستقبل أفضل، تتحسن فيه ظروف الحياة في مختلف جوانبها، من خلال استثمار مكتسبات العلوم في تطوير الحياة الانسانية على ما يأمله الانسان. لكنها أيضا حملت في طياتها تطورات قادت الى ظهور نقاشات حامية الوطيس، من قبيل النقاش حول "الاجهاض"، "الموت الرحيم"، "الاستنساخ"، "التكاثر الاصطناعي" وغيرها ... . وهي نقاشات تتطرق مباشرة الى مفهوم "الكرامة البشرية"، معيدة مسائلة مفهوم "الطبيعة البشرية". كما أن "الثورة البيولوجية متسلحة بالمعرفة والتكنولوجيا الإحيائية، تهدف في الواقع إلى أن تصنع مجتمعا جديدا، لا مجتمعا معدلا، مجتمعا ليس مجرد صورة مكبرة من مجتمعنا الراهن، وإنما مجتمع جديد" (الحفار، 1984، صفحة 18). طارحة بهذا سؤالا خطيرا: هل تقود الثورة البيوتكنولوجية الى اعادة صياغة مفهوم الانسان ؟

من بين أخطر ما جاءت به مكتسبات الثورة البيوتكنولوجية هو الحديث عن امكانية تعديل التفكير والشخصية الانسانية من خلال الأدوية والعقاقير، فالإنسان يتم تصوره على أنه مجموعة من السيّالات العصبية والهرمونات، فاذا ما تم تعديلها يتغير سلوكه وأنماط تفكيره وتصرفاته، وهو ما يعيد مسائلة مفهوم "الكرامة الانسانية" و"الطبيعة البشرية" من الجذور.

كمثال عن هذا تبعت بدايات الثورة البيوتكنولوجية في منتصف القرن العشرين ظهور حركات اجتماعية جديدة أبرزها الحركة الهيبية "**Hippie**"، وهي حركة تنتمي الى تيار الثقافة المضادة، حيث تعمد لاستخدام مكتسبات البيوتكنولوجيا للتحرر من القيود الاجتماعية، وإيجاد سياق ثقافي خاص. فكان من أبرز المدافعين هذه الصيغة عالم النفس الأمريكي "تيموثي لاري" **Timothy Leary** المدافع عن ايجابيات استخدام العقارات المهلوسة في العلاجات النفسية. حيث اعتبر أن تناول عقار "إل إس دي" "**LSD**"، بجرعات مناسبة، يمكن أن يغير بشكل جذري الإدراك والوعي والسلوك والشخصية. فهو يسمح حسبه بتعديل الشخصيات الغير سوية للأحسن، كما يسمح بإعادة تأهيل الاشخاص أصحاب النزعات

الاجرامية، وذلك من خلال أن هذه العقارات تسمح بدخول الاشخاص المتناولين لها في حالة روحانية تجعلهم يعيدون تصور وإدراك ذواتهم وأفكارهم والعالم المحيط بهم.

استلهاما من تجربة هكسلي في كتاب "أبواب الادراك" "**Les portes de la perception**"، الذي يسرد خلالها كيف يقود تناول العقاقير الى مستويات اخرى من الإدراك، تسمح بدخول الانسان في حالة روحانية خاصة. "بدأ شغف تيموثي لاري بالعقاقير المهلوسة. وهو الأمر الذي غير حياته تمامًا بين عشية وضحاها. ففي عام 1963، تم طرده من جامعة هارفارد. لينظم الى تيار الثقافة المضادة، متحالفًا أولاً مع شعراء الإيقاع "**poètes beat**" ثم مع الهيبيين الأوائل. وفي عام 1964، نشر أول أعماله بعنوان "**The Psychedelic Experience**" ، الذي كان يصنف من أمهات الكتب في ذاك المجال إبان تلك الفترة.

لمدة عامين، سيعطي لاري عقار ال "**LSD** " للعملاء الفضوليين الذين يدفعون أموالًا، وهو ما أثير فضيحة في الأوساط الطبية والأكاديمية والسياسية. خصوصا عندما طلب من "مختبرات ساندوز" الصانعة للعقار مائة جرام من عقار "إل إس دي" السائل ، وهو كمية كبيرة تكفي لمليوني شخص لعدة أسابيع. بعدها تم وقف نشاطات لاري ومنه من مزاولة مهنته في أبريل 1966 ، قبل إعلان حضر وعدم قانونية عقار "إل إس دي" "**(Bigot, 1996)** .

توجد أيضا عديد العقارات التي يعزى لها أمور مماثلة من التأثيرات على الشخصية الانسانية ، مثل "البورنزاك" و"الريتالين"، وبصيغة أكثر خطورة "عقار الحقيقة" الذي قيل عنه أنه من المفترض أن يجعل الانسان يدلي بالحقيقة الحقيقة فقط، لأنه يعمل على تعطيل ملكات الحسابات المنطقية والتلفيق لدى الانسان مما يجعل يستفرغ المعلومات فقط. وهنالك أيضا عقارات أخرى تروج لتأثيرات أخرى على الانسان. وان كان صحيحا أن كثيرا من هذه الأفكار ما تزال في إطار المأمول أو آمال الخيال العلمي، أو انها واقعيا لم تثبت النجاعة الكافية، لكن جوهر النقاش هنا يدور حول كيفية تأثير هذه العقاقير البيوتكنولوجية على طبيعة الانسان ذاته ؟.

3. ديستوبيا البيوتكنولوجيا: روايتان فلسفيتان

الديستوبيا (**Dystopie**) يقصد بها أدب المدينة الفاسدة، وهي تأتي عكسا عن اليوتوبيا أي أدب المدينة الفاضلة. تقترح الديستوبيا تصورا مستقبليا عن تطور المجتمعات الانسانية يؤول فيه الوضع للأسوء، حيث يقود تطور مسار التاريخ الانسان الى سياقات حتمية يفقد من خلالها أرادته وحريته، ليجد نفسه في وضع مفروض عليه نتيجة خيارات بدت في البداية جيدة لكنها انقلبت الى كوابيس يعجز الانسان المستقبلي عن تجاوزها. وقد كانت أبرز وأشهر الروايات الفلسفية الديستوبية روايتا جورج أورويل "1984"، ورواية ألدوس هكسلي "عالم جديد شجاع". فقد كانت هاتين الرواتين الأكثر نجاحا في استشراف المستقبل، خصوصا أنهما تطرقتا الى استشراف المستقبل انطلاقا من استشراف تطور العلوم والتكنولوجيات وأثرها على المجتمعات الانسانية.

ديستوبيا أورويل المجسدة في رواية 1984 بالرغم أنها تركز على مساوئ الاستعمالات السياسية للتكنولوجيا من تطور أنظمة المراقبة والمعلومات والحواسيب الآلية، إلا أنها أيضا تشير الى عواقب تطور البيوتكنولوجيا حين يتم استخدماها في محاولة السيطرة على البشر الذي تعتبرهم الأنظمة السياسية الشمولية القائمة مارقين أو يحتاجون لإعادة تهيئة طبيعتهم. حيث يصف مشهد استخدام الكهرباء وعقاقير الألم والهلوسة أثناء تعذيب بطل الرواية "وينستون" كيفية إستخدام مكتسبات التقانة الحيوية في أعمال توصم ب"الشريرة" بغية قمع الحريات للسيطرة على الانسان.

"في المقابل كان موضوع كتاب "عالم شجاع جديد" هو الثورة التقنية الكبيرة الأخرى التي توشك على الحدوث، التقنية الحيوية: تفقيس البشر، ليس في الأرحام ولكن خارج الجسم الحي، دواء السوما الذي يمنح الناس سعادة فورية، والمجسات التي يتم تنبيه الإحساس بواسطة أقطاب كهربية مزروعة، وتعديل السلوك بواسطة التكرار المستمر في

مستوى ما دون الوعي، وعندما يفشل ذلك ينجزونه من خلال إعطاء مزيد من الهرمونات الصناعية، وهو ما أعطى الكتاب بيئته المروعة على وجه الخصوص" (فوكوياما، 2006، صفحة 14).

فهسكلي يتصور مجتمعا تتمكن فيه الآلة والعلم من تعويض الوظائف الطبيعية للإنسان. "ففي مراكز التكييف والحضانة، تولت مصانع تربية الأجنة الحقيقية و"مديرو الحضانة" من قسم الولادة مهمة الامومة وتكاثر البشر. فالأفراد الذين تم إنشاؤهم في هذه المصانع هم نتيجة الجرعات الجينية الدقيقة أثناء عملية النضج. وهكذا توجد الآن عدة "أنواع وأصناف" من البشر المحتملين الذين يشكلون الطبقات التي يقوم عليها المجتمع: ألفا وبيتا وجاما ودلتا وإبسيلون"**(Buzz littéraire, 2006)** .

ففي حين يبدو المجتمع الذي تصوره هكسلي جذابا نظريا، لأنه يؤمن المتع المختلفة لجميع أفراده بسهولة. فالشر هنا ليس بمثل هذا الوضوح لأن أحدا لا يصاب بأذى، فالواقع أن هذا عالم يحصل فيه كل إنسان على ما يريد، وكما يريد. وكما يقول أحد شخوص الرواية: "أدرك المتحكمون أن العنف لا يجدي". وأنه ينبغي إغراء الناس وليس اجبارهم على العيش في مجتمع منظم" (فوكوياما، 2006، صفحة 15). فالجميع يعيشون بصحة جيدة، الجنس متوفر بسهولة والمتع بأنواعها متوفرة، تم الغاء الدين وبالتالي الغاء الضمير، ولم يعد أحد يهتم للفلسفات المتشائمة، والجميع متناغم في بيئته وطبقته الاجتماعية التي تلائم ذكاءه وإمكانياته. فأين تكمن مكامن الشر هنا؟

ان جوهر الاشكال هو في اغتراب الانسان وإستلابه، فالإنسان هنا يغرق في بعد واحد، هو المتعة والاستهلاك وينسى ذاته الحرة والمفكرة، فيتحول الى ما يشبه الآلة الغير واعية. وهذا ما قاد هكسلي الى القول أنه "اليوم، بعد حربين عالميتين وثلاث ثورات كبرى، يتجلى لنا أنه لا يوجد ارتباط ضروري بين التكنولوجيا الأكثر تقدمًا والأخلاق الأكثر تقدمًا" **(Huxley, 1954, p. 281)**.

ان المجتمع العلمي الموعود هذا الذي يرتكز على العلم والتكنولوجيا في كل اجزاءه ومعالمه، قد أصبح مجتمعا منزوع الروحانية والحميمية، باردا أخلاقيا، مجتمعا حوّل الانسان الى ما يشبه الآلة، مفقدا إياه كثيرا من الصفات التي صنعت جوهر الانسانية عبر التاريخ، وأهمها :الحرية والوعي والقدرة على الإختيار.

"التقدم التكنولوجي لا يزيل الحواجز، إنه ببساطة يغير طبيعتها. وهذا صحيح حتى في الحالات التي يؤثر فيها التقدم التكنولوجي بشكل مباشر على حياة الأفراد وشخصهم. على سبيل المثال ، قللت مرافق الصرف الصحي بشكل كبير من حدوث الأمراض المعدية، وخفضت وفيات الرضع ، وزادت متوسط العمر المحتمل. يبدو للوهلة الأولى أن هذا التقدم التكنولوجي يجب أن يكون في نفس الوقت تقدمًا بشريًا. لكن نظرة فاحصة تكشف أنه، حتى هناك، كل ما حدث هو أن شروط تحقيق التقدم البشري قد تغيرت. الحقائق العرضية لهذا التغيير هي الارتفاع الأخير في طب الشيخوخة إلى مرتبة فرع مهم من فروع الطب، ومنح المعاشات التقاعدية لكبار السن، وتهجير نقطة التوازن السكاني، في البلدان ذات معدل المواليد المنخفض، نحو الفئات العمرية الأعلى. بفضل المرافق الصحية، فإن المسنين في طريقهم لأن يصبحوا أقلية ذات أهمية اجتماعية، وبالنسبة لهذه الأقلية المهمة، فإن مشاكل التقدم البشري فيما يتعلق بالسعادة والخير والإبداع صعبة بشكل خاص"**(Huxley, 1954, pp. 282-283)**.

كان "جورج اورويل" في استشرافه للمستقبل في ديستوبيا 1984 يتصور مجتمعا مستقبليا يتمكن في السياسيون المستبدون من احكام سيطرتهم باستخدام العلم والتكنولوجيا لقمع كل حريات الانسان، أما هكسلي فقد كان يخاف من أن يتم استخدام مكتسبات العلم والتكنولوجيا لإقناع الانسان بتغيير طبيعته والتخلي طوعا عن حرياته. كان أورويل يخاف من ان تختفي الحقيقة ويغترب الانسان نهائيا عندما يتم منع المعلومات والكتب نهائيا بفعل تطور الرقابة والاستبداد السياسي. اما "ألدوس هكسلي" فعلى العكس

كان يخشى أن تضيع الحقيقة في بحر هائل من المعلومات والحقائق عندما تتطور التكنولوجيات لتسمح بانتشار كم هائل من الكتب والمعلومات بدون تمحيص. واذا كان أورويل يخشى من تغوّل الاستبداد وشموليته، فإن هكسلي كان يخشى من أن تتمكن الهيمنة الناعمة من اقناع الناس بقبول وضعية اغترابهم واقناعهم بأنها أفضل العوالم الممكنة. وهذا تقريبا ما ذهب الى "هربرت ماركيوز" من القول أن المجتمعات الصناعية المتقدمة قد تمكنت من عقلة لا عقلانيتها من خلال تطوير التكنولوجيا وما تخلقه من غايات زائفة للإنسان بفعل انتشار ثقافة الاستهلاك.

3. الفلسفة وديستوبيا التقدم العلمي

ان الفلسفة باعتبارها مجالا يساءل ويبحث ويتقصى عن خبايا الأمور وما وراء الخطابات، قد تطرقت الى سؤال التقدم العلمي بنظرة نقدية فاحصة تجسدت من خلال أعمال عدة فلاسفة في تاريخها، محاولة الإجابة عن سؤال: هل التقدم العلمي يقود الى التقدم في كل المجالات؟ وهل تطور تقنيات التقانة الحيوية والتكنولوجيات يقود الانسان الى حياة أفضل؟

كان روسو في عصر التنوير يرى على عكس الكثيرين من المتفائلين بأطروحة التقدم العلمي، أن تحالف التقدم العلمي مع التقدم الحضاري له آثار سلبية على الانسان أكثر من إيجابياته. وقد توصل الى القول أن التطور العلمي لا يقود الى تطور المنظومة الاخلاقية والاجتماعية للإنسان، بل إنه على العكس يمثّل أساس التفاوت بين البشر، ويقود الى سلب الحرية واغتراب الانسان عن طبيعته. حيث "كان جان جاك روسو في رسالته عن تأثير الفنون والعلوم في الأخلاق قد أقام الدليل على أنهما أفسدا الأخلاق وأوجبا شقاء الإنسان، مدَّعِيًا أن الترف والحضارة من نتائجهما، قائلًا بالرجوع إلى حال الطبيعة، ومما ذهب إليه في هذه الرسالة كونُ الثقافة أقرب إلى الشر منها إلى الخير، وكون التفكير مناقضًا لطبيعة الإنسان،

وكون الفضيلة والأمانة والصدق لا أثَرَ لها في غير الحال الطبيعية حيث لا علوم ولا فنون" (روسو، 2012، صفحة 7).

أما بالنسبة ل"هربرت ماركيوز" الذي ينتمي للفترة المعاصرة، فإن يرى بأن الحرية الانسانية والإنسان ذاته مهدد بالدخول في حالة اغتراب واستلاب طوعي في المجتمعات الحديثة المتقدمة بفعل تطور التقانة فيها. وتطور التقانة ليس تطورا علميا بريئا، بل إنه يخدم أجندات سياسية وأيديولوجية قائمة، حيث تستعمل السلطات الوصية التقانة المتقدمة لفرض نوع من الهيمنة الناعمة، تزول معها كل أشكال القسر التقليدية، لتؤسس لمنظومة هيمنة بآليات اقتصاد السوق والثقافة الاستهلاكية وما يتبعها من إغراق الانسان في البعدي المادي للمتع والاستهلاك، حتى يتحول هو ذاته الى سلعة في سلسلة الانتاج.

أسوء ما في القضية بالنسبة لماركيوز، هو أن تتمكّن التكنولوجيا والتقانة في هذه المجتمعات من أن تخلق حاجات زائفة تتحول الى غايات للإنسان يعرّف نفسه من خلالها، فتخلق منظومة عقلانية زائفة، تقود ضرورة الى اغتراب الانسان. فمعالم هذه "العقلانية المختلقة" هي "قبل كل شيء قدرة هذا المجتمع بفضل التطور التقني على استباق كل مطالبة بالتغيير الاجتماعي، وعلى تحقيق هذا التغير تلقائيا. ومن زاوية الانجازات التي حققها المجتمع الصناعي المتقدم تبدو النظرية النقدية مطالبة بتجاوز هذا المجتمع هي اللاعقلانية وليس هو، إذ هل من المعقول في شيء المطالبة بتغيير مجتمع يثبت يوميا قدرته على التنمية وتوفير حياة الرغد والرفاه لأعضائه؟" (ماركوز، 1988، صفحة 11). بعبارة اخرى فهي عقلانية الأمر الواقع، حتى لو لم تكن هي نفسها "عقلانية".

فهذا الأمر يقود الى القول أن "مجتمع التكنولوجيا والصناعة المتقدمة وما تحقق له هذه الطاقة من هيمنة على الفرد تتجاوز من بعيد كل أشكال السيطرة التي مارسها المجتمع في الماضي على أفراده. ولقد كانت السيطرة على مر العصور شكلا لاعقلانيا من أشكال العلاقات الانسانية. وبسبب طابعها اللاعقلاني هذا على وجه التحديد، كان في وسع الانسان

دوما أن يعقلها ويفضحها ويطالب بوضع حد لها. بيد أن السيطرة الاجتماعية في عصر التقدم التكنولوجي تتلبس طابعا عقلانيا يجرد سلفا كل احتجاج وكل معارضة من سلاحها" (ماركوز، 1988، صفحة 11).

هكذا فإن التقانة تغدو أهم وسيلة للقمع و الهيمنة الناعمة التي تمارسها المجتمعات الصناعية التكنولوجية على الانسان الذي يعيش فيها، وبها تعقلن عقلانيتها الزائفة، فيصبح الانسان راضيا باغترابه عن ذاته، قابلا بالتخلي عن حرية في سبيل غايات مختلقة نجحت "الأيديولوجيا" في اقناعه بأنها هي ما يريده.

من وسائل اخفاء آليات القمع والاغتراب التي تلجئ الى الايديولوجيا في المجتمعات الصناعية المتقدمة هي التكنولوجيا، فمنتجات التقانة تتيح للأجهزة السياسية تحكما أكبر في الخطاب الاعلامي والرأي العام، كما تتيح لها أيضا نشر الثقافة الاستهلاكية وأيديولوجيا الرفاهية.

في هذا الصدد يقول ماركيوز: "حتى وان كان هذا الواقع قد استوعب الأيديولوجيا، فذلك لا يعني أنه لم يعد هناك أيديولوجية. بمعنى آخر، فعلى العكس ثقافة التقدم الصناعي هي أكثر أيديولوجية مما سبقها"**(Clavet, 1986, p. 215)** .

في سياق آخر يرى فرنسيس فوكوياما في كتاب "مستقبلنا ما بعد البشري: عواقب الثورة البيوتكنولوجية"، أن الثورة البيوتكنولوجية اذا تركت على عواهنها فإن أثارها السلبية ستغلب إيجابياتها، لأنها تهدد بتغيير طبيعة الانسان ذاته، مهددة كل أشكال ومفاهيم "الكرامة البشرية"، لهذا يقترح فوكوياما بتنظيم مجال الأبحاث العلمية خصوصا فيما يتعلق بالتقنية الحيوية التي تمس الانسان بالذات، وذلك من خلال إخضاعها للمنظومة الأخلاقية الانسانية ومحدداتها. وهو ما من شأنه تجنب أن تقودنا عواقب البيوتكنولوجيا الى تجسد الديستوبيا في أرض الواقع.

فإذا كان الثورة البيوتكنولوجية تقدم نفسها على أنها بوابة عالم مستقبلي للإنسان، فإنه" ليس علينا قبول أي من هذه العوالم المستقبلية تحت شعار زائف عن الحرية، سواء كانت تلك حرية الحقوق الإنجابية غير المحدودة، أو حرية إجراء البحث العلمي بلا قيود. ولا يتعين علينا إعتبار أنفسنا عبيدا للتقدم التقني المحتوم، عندما لا يخدم هذا التقدم غايات الإنسان. إن الحرية الحقيقية تعني حرية المجتمعات السياسية في حماية أغلى قيمها، وتلك هي الحرية التي تحتاج الى ممارستها فيما يتعلق بثورة التقنية الحيوية اليوم" (فوكوياما، 2006، صفحة 269).

"أشار مارتن هايدغر أن "العلم لا يفكر" (بوطرفة، 2022، صفحة 87) ، وهو يقصد بهذا أن التقانة والتكنولوجيا لا تقود بذاتها الى التقدم ، بل يجب على الانسان المفكر ان يحدد أين يتجه بهذا، وهذا بالذات هو محور التحذير من عواقب البيوتكنولوجيا، حتى لا تتحول الى ديستوبيا واقعية.

4. خاتمة:

ان الثورة البيوتكنولوجية وإن كانت في أساسها ثورة علمية تحمل في طياتها وعودا بحياة أفضل وعالم أفضل يعيشه فيه الانسان، فان لها جوانب سلبية قد تقلب حياة الانسان الى كابوس، فتتحول بهذا من الأمل في يوتوبيا الى ديستوبيا. وقد تطرقت عديد الروايات والأطروحات الفلسفية لهذه الإشكالية، فكان أبرزها رواية "ألدوس هكسلي" "عالم جديد شجاع"، وكذا رواية "جورج أورويل" "1984". أما على صعيب الأطروحات والنظريات الفلسفية فقد حذر قديما جون جاك روسو من آثار التقدم العلمي على الإنسان، وأنذر هربرت ماركيوز أن الثورة التقنية في المجتمعات الحديثة المتقدمة تقود قدما لإغتراب الانسان داخل عقلانية مزيفة. أما فرنسيس فوكوياما فقال بضرورة ضبط البيوتكنولوجيا بضوابط قيمية حتى لا تنقلب الى ديستوبيا واقعية.

فإذا كانت الثورة الكوبرنيكية قد أحدثت انقلابا فكريا غيّر من ملامح التفكير البشري، وإذا زعزعت النظرية التطورية كل مفاهيم "الكرامة البشرية"، فإن الثورة البيوتكنولوجية تبدو تأثيراتها

على أنها أكثر سلاسة لكنها تبشر أو تنذر العالم بمجيء نموذج انساني جديد، وهو ما يجعل من تقدير آثارها أحد أهم المهمات الاستشرافية التي ستكشف مآل الانسانية في قادم السنين.

5. قائمة المراجع:

- **المؤلفات:**

- ايمن بوطرفة. (2022). *سؤال العدالة في الفلسفة السياسية الراهنة*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- أيوب أبو دية. (2009). *العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة: من كوبرنيق الى هيوم*. بيروت: دار الفارابي.
- جان جاك روسو. (2012). *أصل التفاوت بين البشر*. (عادل زعيتر، المترجمون) مصر: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- روزي بريدوتي. (2021). *ما بعد الانسان* (المجلد 488). (سلسلة عالم المعرفة، المحرر، و عبد المحسن مظفر حنان، المترجمون) الكويت: المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب.
- سعيد محمد الحفار. (1984). *البيولوجيا ومصير الانسان* (المجلد 38). (سلسلة عالم المعرفة، المحرر) الكويت: المجلس الوطني للفنون والثقافة والآداب.
- فرنسيس فوكوياما. (2006). *مستقبلنا ما بعد البشري: عواقب الثورة البيوتكنولوجية*. (عبد الرحيم محمد ايهاب، المترجمون) أبو ظبي: مركز الامارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية.
- فريدل فاينرت. (2019). *كوبرنيكوس وداروين وفرويد : ثورات في تاريخ العلم*. (أحمد شكل، المترجمون) القاهرة: هنداوي.
- هربرت ماركوز. (1988). *الانسان ذو البعد الواحد*. (جورج طرابيشي، المترجمون) بيروت: دار الآداب بيروت.
- Huxley, A. (1954). *LES PORTES DE LA PERCEPTION.* (J. Castier, Trad.) France: Éditions du Rocher.

- **المقالات:**

- Clavet, J.-C. (1986). Le concept de liberté chez Herbert Marcuse. *Revue Philosophiques , 13* (2).

- **مو اقع الانترنيت:**

- Bigot, Y. (1996, juin 1). *Le dernier trip de Timothy Leary. Figure clé de la contre-culture psychédélique: le pape de l'acide est mort*. Consulté le janvier 20, 2023, sur Liberation: https://www.liberation.fr/culture/1996/06/01/le-dernier-trip-de-timothy-leary-figure-cle-de-la-contre-culture-psychedelique-le-pape-de-l-acide-es_175627/)
- Buzz littéraire. (2006, octobre 29). *Le meilleur des mondes d'Aldous Huxley : Un monde sous conditionnement pour une civilisation « zéro défaut*. Consulté le janvier 2023, 22, sur www.buzz-litteraire.com: http://www.buzz-litteraire.com/20061029612-le-meilleur-des-mondes-d-aldous-huxley/